المجلد التاسع والعشرون للعام ٢٠٢٥م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

الاغتراب والتمرد في روايات الطيب الصالح
موسم الهجرة إلى الشمال نموذجا

Exaggeration and rebellion in the novels of Al -Tayyib Al –Saleh The migration season to the north as a model

بقلم الدكتورة

أنفال محبوب جمعة مبارك

أستاذ مساعد ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية التربية الأساسية
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب ، الكويت.

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار مارس ٢٠٢٥م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٥/٦٩٤٠م

الاغتراب والتمرد في روايات الطيب الصالح
موسم الهجرة إلى الشمال نموذجا

أنفال محبوب جمعة مبارك

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية التربية الأساسية ـ الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب ، الكويت.

البريد الإلكتروني : anfal@gmail.com

الملخص

يقدم هذا البحث دراسة معمقة في ظاهرة الاغتراب والتمرد في روايات الطيب الصالح، ضمن إطار ثقافي روائي، وذلك للكشف عن خبايا هذه الظاهرة، وما تتضمنه من قضايا معاصرة لا تزال عالقة حتى وقتنا الراهن دون إجابات لها؛ كالهوية، والانتماء، والذي يعبّر عن هذه الظاهرة والقضايا بشكل متشبّع وجليّ، ولا سيما في معالجته للاغتراب الذاتي وذلك لانبثاقه من أنواع الاغتراب.

وقد اتبعت المنهج الوصفي لدراسة الاغتراب والتمرد بشكل خاص في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" والتي تعدّ من أبرز روايات الطيب الصالح.

وقد حاولت الدراسة مناقشة ما يلي من خلال الرواية:

هل حاولت الذات العربية التشبث بهويتها الشرقية الحضارية الغائبة؟ وبالقدر نفسه هل حاولت الانتماء إلى هوية الآخر الغربي المتفوق علميًّا ؟، وفي كلا المسعيين، هل نجحت في إنتاج هوية واضحة تنتمي إليها، أم عاشت بين اغترابين؛ اغتراب التوحش في المدينة (انكلترا)، واغتراب التوحد في القرية / السودان ؟ .

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، الأدب، المنفى، التمرد، الوطن.

Exaggeration and rebellion in the novels of Al -Tayyib Al –Saleh The migration season to the north as a model

Anfal Mahboub Jumaa Mubarak
Department of Arabic Language and Literature, College of Basic Education - Public Authority for Applied Education and Training, Kuwait.
Email: anfal@gmail.com

Abstract

This research presents an in-depth study of the phenomenon of alienation and rebellion in the novels of Al-Tayeb Al-Salih within a cultural narrative framework ،in order to reveal the mysteries of this phenomenon and the contemporary issues it includes that are still unanswered to this day without answers. such as identity and belonging ،which expresses this phenomenon and issues in a saturated and clear way ،especially in its treatment of self-alienation because it emerges from the types of alienation ، and the researcher followed the descriptive approach to study alienation and rebellion in particular in the novel "Season of Migration to the North" ،which is considered one of the most prominent novels of al-Tayyib Al-Saleh ،and the study found the following: that the Arab self-tried to cling to its absent ،civilized Eastern identity ، and to the same extent it tried to belong to the identity of the Western Other who is scientifically superior ،and in both endeavors ،it failed to produce a clear identity to which it belongs; Therefore ،she lived between two alienations ،the alienation of savagery in the city (England) and the alienation of autism in the village (Sudan)?.

Keywords: alienation ،literature ،exile ،homeland.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

ينطلق البحث من فكرة أن الاغتراب بطبيعته يمثل أرضاً خصبة لتنامي أزمات خفية يعانيها الأفراد بتفاوت، كلّ منهم حسب ظروفه وطبيعة بيئته المحيطة، ولأن الأدب هو نتاج المجتمع، فقد لاقت هذه الظاهرة المثيرة للقلق في مختلف الأجناس الأدبية رواجاً، ولا سيما الروائية منها، والتي تمكنت بدورها من تأكيد مكانتها المهمة على الساحة الثقافية العالمية في الوقوف عند هذه الظاهرة وربما معالجتها.

فقد شكل مفهوم الاغتراب مادة خصبة لعدد من الحقول المعرفية على اختلاف مداخلها الفكرية، وهو ليس وليد وقتنا الراهن، بل يضرب بجذوره في عمق التاريخ، إذ نجده في الكتابات اللاهوتية، أي في بدايات القرن السادس عشر من لوثر إلى كالفن، ومن ثم انتقلت وتشعبت استخداماته على مدى قرنين مروراً بالفكر الفلسفي والاجتماعي الأوروبي، نرى نقاد الأدب والفن يستخدمون كلمة "الاغتراب" للتعبير عما يستشعره الإنسان الحديث من غربة كونية، وما يحسه من زيف الحياة وعتمتها، وما يلحظه على علاقات الأفراد بعضهم ببعضهم الآخر من سطحية واستغلال ولا إنسانية... إلى آخر هذه المظاهر من الفساد والتفسخ الاجتماعي التي تستشري في واقعنا الحديث، بصورة تكاد تهدد وجود الإنسان وصحته النفسية ..

وعليه لم تعد الكتابة الروائية تكتفي بسرد حكايات شخصياتها فحسب، وإنما بدأت تعمل على تقديم واقع ووعي لما يدور حولها، مما يجعل الكتابة نوعاً من أنواع الوعي المتخفي بالكتابة على حساب المكتوب عنه، حتّى غدت الرواية نوعاً أدبيًّا فريداً للتعبير عن الواقع، وتأريخًا لما ينتجه من ظواهر تعكس أثرها في الفرد والمجتمع، إذ قدمت الرواية العربية في الآونة الأخيرة، وتحديداً في النصف الأخير من القرن الماضي – العشرين – وبداية القرن الجديد، أفضلَ قراءةٍ

للإنسان العربي في العصر الحالي، فقد صارت الكتابة تحاكي ذاتية الإنسان في مختلف تحولات حياته، الوجدانية، والمجتمعية، والمعرفية .

وروايات الطيب الصالح تتطرق وبشكل عفوي، وتفرد أدبي متميز، لوصف الأنا والآخر، من خلال رحلة تنَقُّلِه واغترابه في عدة مناطق مختلفة على المستوى الديني واللغوي والاجتماعي، إذ عبرت الروايات بشفافية عالية عن حالة المغترب العربي، والمتمثل في شخصية البطل ضمن سرد روائي رصين،على نحو ما رأينا في روايته " موسم الهجرة إلى الشمال " موضوع هذا البحث ومصدره الرئيس .

وقد جاء السبب وراء اختيار هذا الموضوع لأهمية ظاهرة الاغتراب والتمرد وتشعبها وغموضها، إذ عمدت بعض العلوم إلى دراستها، والوقوف عند خصائصها، ففي مؤلّفه "الاغتراب سيرة مصطلح"، يقول محمود رجب : "لو وجه علماء اللغة أجهزتهم لرصد ما يكتبه الباحثون والنقاد والفلاسفة في عصرنا الحاضر، فإنني لأراهن على أن كلمة "الاغتراب" ... سوف تحظى بالأولوية من حيث ترددها" (رجب، ١٩٨٨)[١]، وذلك لما لها من أثر في فهم ما تكابده المجتمعات من تحولات اجتماعية، وتشظٍ نفسي، وتصدع ذهني، وسيكون ذلك من خلال صورة تتجسد في الشخصيات الروائية لتمثل الواقع. بالإضافة إلى أهمية موضوع الرواية – محل البحث – وما تحمله من أفكار وإحالات عميقة وشائكة، إذ من الشائع أن يكون أحد أبرز أسباب الاغتراب ما شهدته المناطق المُستعمَرة من حركات الاستعمار وما تبعه من حركات هجرة لكثير من الأفراد والمثقفين، أو بسبب تنامي المجتمع الرأسمالي كما ترى النظرية الماركسية.

وشكلت روايات الطيب الصالح عاملًا مهمًّا في اختيار الموضوع، لأنها تجسد تمرده على الواقع الناتج من اغتراب شخصية البطل، كما تنطلق أهمية

(١) نقلاً عن محمود رجب، الاغتراب سيرة مصطلح، ط ٣، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٨)، ص٣٢١ .

الدراسة من كيفية تعبير الأدب عن ظاهرة الاغتراب التي ألقت بظلالها على العمل الروائي العربي في الآونة الأخيرة، ورصد دوره في إعادة التفكير في مفهوم الاغتراب والتمرد، وتقديمه من خلال تقاطعه مع قضايا مختلفة معاصرة.

بالإضافة إلى ذلك يتناول البحث طريقة طرح الرواية المتميزة، حيث يأتي الهدف من هذا لتوضيح دور الأدب في التعامل مع مفهوم الاغتراب والتمرد كأحد أدوات السرد الروائي، وقدرة هذا المفهوم في التعبير عن قضايا المجتمع المعاصرة، وذلك من خلال قراءة نقدية منهجية لروايات الطيب صالح.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات سابقة في مصطلح الاغتراب وأنواعه ودوافعه، وهناك أيضا دراسات تطبيقية في الرواية وأخصها (الاغتراب الوجودي في رواية موسم الهجرة إلى الشمال للروائي الطيب الصالح)، د حازم سليمان الناصر، وهي كما نرى تلمح عنصرًا واحدًا من عناصر الاغتراب.

ولتحقيق هدف الدراسة كان لابدّ من طرح بعض التساؤلات، أهمها:

- أهم العوامل والمظاهر التي أدت إلى اغتراب شخصية البطل في الرواية.
- كيف عبر الطيب الصالح في رواياته عن الاغتراب والتمرد داخل إطار العمل الروائي؟

ويحمل البحث على عاتقه تلخيصا شاملاً للرواية، ودراسة فاحصة للنصّ، في محاولة لتتبّع طريقة السرد وتعبيرها عن حالة الاغتراب الذاتي، التي عاشها البطل، وذلك من خلال تحليل بعض النصوص المنتقاة من الرواية بحسبانها نموذجاً يعبر عن معاناة شريحة من شرائح المجتمع العربي، وما تكابده هذه الشريحة من تشظّي الذات، وفقدان الانتماء، وضياع الهوية، وعلاقة الاغتراب الذاتي بأشكال الاغتراب الأخرى التي يمكن أن يتداخل بعضها في الآخر، كالاغتراب الديني، والاغتراب الثقافي، والاغتراب الزماني، والاغتراب الاجتماعي، وغيرها،

وجاء البحث في تمهيد يسلّط الضوء على:

(مفهوم الاغتراب : المصطلح / الظاهرة)،ويتناول تلخيصًا لروايات الطيب الصالح ،وخاصة روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) موضوع البحث الذي جاء في مبحثين وخاتمة .

المبحث الأول: ويتحدث عن :

(الاغتراب والتمرد في المتن السردي في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال ")

أمّا المبحث الثاني : فيتناول النموذج الإنساني النسوي وارتباطه بالمكان .

وجاءت الخاتمة، لتخلص إلى الخروج بصياغة مفهوم ظاهرة الاغتراب، مُستنتَجة من داخل النص. وتأتي المراجع كاشفة عن تطواف البحث واستطلاعه ورصده لما كتب قبل ذلك والبناء عليه، مع فهرس لموضوعات البحث.

آملةً أن يكون البحث إضافةً جديدة فيما يُقدّم من دراسات أدبية ونقدية، ترصد تحولات الرواية العربية وواقعها في العصر الحديث.

التمهيد

أولا : الاغتراب : المفهوم والمصطلح .

الاغتراب ومفهومه قديما وحديثا:

غَرَبَ أي: بَعُدَ والغَرَب: الذهاب والتنحي عن الناس والغُربة والغُرب: النزوح عن الوطن، والاغتراب والتغريب : النفي عن البلد" (لسان العرب، ١٩٩٤)، وهذه الدلالات (البعد، والذهاب، والتنحي، والنزوح، والنفي)، تشترك جميعها في جذر واحد هو (الانفصال عن.....) الذي يوحي بأن الاغتراب بوصفه حدثاً يتم بفعل ذاتي يمتلك إمكانية الاختيار، أو بفعل غيري قسري.

ومصطلح الاغتراب وضبطه يحتاج إلى جهد غير يسير لتحديد مفهوم الاغتراب (Alienation) وضبط مصطلحه، في ضوء أدبيات الاغتراب.

وتعود صعوبة ضبط المصطلح لأسباب كثيرة، ربما كان أهمها :صعوبة تحديد المفهومات التجريدية، وأن مصطلح الاغتراب واسع شامل تتعدد مفاهيمه بتنوع التجربة الإنسانية التي يعانيها الفرد في صدامه المستمر مع الحياة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تعود الصعوبة إلى التداخل بين أنواعه، إذ إن الاغتراب السياسي يؤثر في الاغتراب الاجتماعي، وهما أيضاً يؤثران في الاغتراب الديني وغيره، وثمة مفاهيم أخرى قريبة منه، أو هو قريب منها، تلامسه أحياناً وأحياناً أخرى تلابسه، مثل الغربة والغرابة، والتغريب والتغرّب، والعدمية، والتشيء، والوحدة، والعزلة، والانخلاع، والانفصال، واللا انتماء، وغيرها من المصطلحات .

والأقرب لما وقفت عليه من تحديد للاغتراب ما ذَكَرتْهُ الكاتبة الأمريكية إديث كريزويل في ثبتها الاصطلاحي، وهي تعرف الاغتراب في كتابها (عصر البنيوية ص ٣٦٩) :بأنه " حالة نفسية اجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريباً وبعيداً عن واقعه الاجتماعي " .

والفكر الاغترابي، فكر غير قادر على تنظيم نفسه وضبط مساراته المعرفية، والتواصل مع المحيط والآخر، فهو فكر مشتت في وعيه، متشظ في تفكيره.

أما الشعور بالاغتراب، فهو في النهاية صفة لعدم الرضا، أو القناعة بالحالة التي يعيشها الإنسان، فهو حالة التناقض في الوعي.

تاريخ الاغتراب

لسنا بصدد سرد تاريخ الاغتراب في حياة الإنسان، ولكن لا بد من الإشارة إلى أبرز محطاته عبر تاريخه الطويل، من أجل الإحاطة الموضوعية بمفهوم الاغتراب، ورصد أبرز تجلياته. ربما كان هبوط أبينا آدم (عليه السلام) من الجنة، بداية اغتراب سديمي، ولكن أول مظهر اغترابي مؤلم وحقيقي في الخليقة هو قتل قابيل لأخيه هابيل.

وكان أفلاطون الذي دعا إلى إقامة جمهورية فاضلة يحكمها الفلاسفة حتى تتحقق العدالة، يمثل الاغتراب الأخلاقي، وكل المدن الفاضلة أو اليوتوبيات التي ظهرت بعده تمثل اغتراب أصحابها عن مجتمعاتهم، وطموحهم لتحقيق المثل العليا. ولعل التصوف بمفهومه الهجين، بعد أن اختلط بفلسفات غير إسلامية يمثل حالة اغتراب في بيئة الفكر الإسلامي.

أما بداية الالتفات إلى ظاهرة الاغتراب وظهور أدبيات تُعنى بها، فقد كانت مع ظهور الثورة الصناعية الكبرى في أوربا الغربية في بدايات القرن التاسع عشر.

إن العيش في المدن الكبرى ذات الطابع الصناعي الشمولي، خلق الاغتراب عن طريق عصفه بطبيعة عيش سكانها، فقد بدأ الإنسان يفقد السيطرة على ذاته وقدراتها وملكاتها، إذ وجد نفسه بدلاً من أن يسيطر على ما صنعه، أصبح ما صنعه مُسيطَراً عليه.

وكان ممّا فجر الاهتمام بدراسة الاغتراب أكثر فأكثر ظهور عدد من روايات لكتاب وجوديين، تعالج هذه الظاهرة، وقد يكون من أهمها، رواية (الغريب) للكاتب الفرنسي الشهير ألبير كامو.

وقد أسهم مسرح العبث واللامعقول في ذيوع مفهوم الاغتراب، لعلاقته العضوية بالوجودية، إذ تعد مشكلة الفردية، وعدم التواصل مع الآخرين من أهم المشكلات التي يعرض لها هذا المسرح، وربما كانت مسرحية (في انتظار غودو) للكاتب صموئيل بيكيت علامة بارزة في معالجة ظاهرة الاغتراب في هذا المسرح.

نخلص من كل ما تقدم إلى أن الاغتراب بتجلياته المتباينة قضية جوهرية في الفكر الإنساني، يضرب بجذوره العميقة في تاريخ الإنسان السحيق، وليس وليد العصر الحديث أو ربيب الفكر الغربي المعاصر، وإنما ظهر الاغتراب ظهوراً قويًّا في حياتنا الحاضرة، فكان ملمحاً بارزاً من ملامح عصرنا الحديث، وقد عدّه عدد كبير من المفكرين علامة العصر الحديث، وذهب ريتشارد شاخت إلى أنه (شعار العصر)، وأنه واحدة من أضخم المشاكل التي تواجهنا اليوم، واصفاً الإنسان المعاصر بأنه إنسان لا منتج أجوف.

الإنسان كائن اجتماعي، فالرفقة والصحبة والمصاحبة، من أهم سماته المميزة لهويته، ومع ذلك كان تاريخه تاريخ اغتراب دائم، وكل تقدم حققه عبر ذلك التاريخ الطويل، كان عامل اغتراب على مستويات عدة.

عندما نلتقي الآخر من طريق ثقافة مغايرة لثقافتنا، نستشعر الغربة ونعيش الاغتراب، فاللقاء يكشف عن المسافة التي تفصل عالمنا عن عالم الآخر، ولكن الذات تحتاج دائماً إلى آخر حتى تتبلور ويُحسّ بها. أي أن الذات لا بدّ لها من موضوع لتنتقل من وجودها الهيولي إلى وجود متعين في صورة، ذلك أن واقعة الوعي تشترط وجود ذات عارفة وموضوع معرفة، ومن هنا كان الاغتراب ملازماً لحياة الإنسان يأخذ أشكالًا متعددة، أحياناً يكون مرئيًّا، وأحيانًا أخرى يكون مُتخفياً.

إن من لا يتوافق مع محيطه يُعَدّ بشكل من الأشكال مغترباً، ولكن ربما كان أولئك الذين يظهر أنهم يتوافقون مع محيطهم أكثر اغترابًاعن أنفسهم من غيرهم.

إن الإنسان عندما يسعى إلى تكوين مفهوم عن ذاته، على وفق نظرة الآخرين، غالباً ما يؤدي ذلك إلى اغترابه وسوء توافقه النفسي؛ لأنه يضطر إلى أن يزيف أغلب قيمه ولا يدركها إلا في ضوء تقدير الآخرين لها. لذلك يعيش الإنسان أزمة الهوية؛ لأن الهوية الشخصية هي"تشابه الكائن العاقل مع ذاته"، لذلك نتساءل:

لماذا يسعى الإنسان إلى تكوين مفهوم عن ذاته على وفق نظرة الآخرين؟ قد يكون الجواب أن الإنسان كائن اجتماعي طبيعة وثقافة، أو لأن ثقافته مغلوبة، أو لضعف شخصيته بفعل مؤثرات متباينة، وربما لكل هذه الأسباب وغيرها.

ويظل مفهوم الاغتراب مفهوماً مثيراً للجدل فقد "نظر" هيجل إلى الاغتراب بوصفه نبض حياة الروح، بينما أراد ماركس أن يتخلص منه.

ثانيا: روايات الطيب الصالح (الهجرة إلى الشمال)

الطيب صالح (12يوليو 18 - 1929 فبراير 2009)،[2] أديب روائي، وصحفي سوداني، من أشهر الأدباء العرب في القرن العشرين . اشتَهَر في الرواية والقصص القصيرة؛ فأطلق عليه النقّاد لقب«*عبقري الرواية العربية*» . عاش في بريطانيا وقطر وفرنسا [3].عمل صحفيًّا لدى إذاعة بي بي سي البريطانية، ولدى عدد من المجلات العربية، وكان عضوًا في منظمة اليونسكو .عُرِفَ بروايته *موسم الهجرة إلى الشمال* (1966) التي تصنّف من أهمّ الروايات في الأدب العربي [4][5].تُرجمَت رواياته وقصصه القصيرة إلى ما يزيد على عشر لغات.

أصدر الطيب صالح ثلاث روايات، وعدة مجموعات قصصية قصيرة.

حولت روايته «عرس الزين» إلى دراما في ليبيا، ولفيلم سينمائي من إخراج المخرج الكويتي خالد صديق في أواخر السبعينات، حيث فاز في مهرجان كان.

أهم أعماله:

- موسم الهجرة إلى الشمال[9] عام ١٩٦٦م.
- ضو البيت (بندر شاه): أحدوثة عن كون الأب ضحية لأبيه وابنه.
- عرس الزين عام ١٩٦٩م
- مريود (الجزء الثاني من بندر شاه)، ١٩٨٥م.

أعمال أخرى:

- (نخلة على الجدول) قصة قصيرة .
- الأعمال الكاملة ١٩٨٤م.
- دومة ود حامد: (مجموعة قصصية) ١٩٩٧م.
- منسي إنسان نادر على طريقته2004 م.
- المضيؤون كالنجوم من أعلام العرب والفرنجة، ٢٠٠٥م.
- للمدن تفرد وحديث –الشرق– ٢٠٠٥م.
- للمدن تفرد وحديث –الغرب– ٢٠٠٥م.
- في صحبة المتنبي ورفاقه ٢٠٠٥م.
- في رحاب الجنادرية وأصيلة ٢٠٠٥م.
- وطني السودان ٢٠٠٥م.
- ذكريات المواسم ٢٠٠٥م.
- خواطر الترحال ٢٠٠٥م.
- مقدمات ٢٠٠٩م،[10] ، وهو كتاب من القطع المتوسط، جُمعت فيه مقدماتٌ كتبها الطيب صالح لمؤلفات أدبية.

ومن المفهوم أن رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» نالت شهرتها من كونها من أولى الروايات التي تناولت، بشكل فني راق، الصدام بين الحضارات وموقف إنسان العالم الثالث النامي ورؤيته للعالم الأول المتقدم، ذلك الصدام الذي تجلّى في أعمال الوحشية دائماً، والرقيقة الشجية أحياناً، لبطل الرواية «مصطفى سعيد» الدراسات الحديثة التي تناولت رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» ورواية «بندر شاه» للمؤلف نفسه، تلك الدراسة التي نشرت أخيراً في سلسلة حوليات كلية الآداب التي يصدرها مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت بعنوان «رؤية الموت ودلالتها في عالم الطيب صالح الروائي، من خلال روايتي: موسم الهجرة إلى الشمال، وبندر شاه» للدكتور عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجي، الأستاذ في قسم اللغة العربية ــ كلية الآداب جامعة الملك سعود. تتناول الدراسة بالبحث والتحليل رؤية الموت ودلالتها في أدب الطيب صالح الروائي في عملين بارزين من أعماله هما: «موسم الهجرة إلى الشمال» و«بندر شاه»، وتنقسم الدراسة إلى قسمين كبيرين وخاتمة.

يعالج القسم الأول منهما محوري الموت الرئيسين في هاتين الروايتين: محور موت الأنثى، وهو موت آثم يرتبط في أكثر معانيه بغريزة الجنس، ولا يخلو من عنف أو خطيئة، وموت الرجل وهو موت نبيل يرتبط بالكبرياء والسمو ولا يخلو من تضحية ونكران ذات.

هذان العَالَمان المتمايزان يثير الروائي من خلالهما عدداً من القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية والنفسية، توحي بأزمة الصراع المكثف بين حضارتي الشرق والغرب، فكأن المقابلة بين الأنثى والرجل ووضعهما في إطارين متمايزين من خلال الموت، وهي مقابلة من صنع مؤلف الدراسة لا الروائي ــ تلك الرؤية الفنية ترمي إلى اختصار الصراع بين عالمين مختلفين حضاريًّا: شمال ــ جنوب، هي في النهاية المعادل الفني لأزلية الصراع بين الشر والخير ممثلين في الأنثى ــ الشر، الرجل ــ الخير ، و: شمال ــ أنثى ــ شر، جنوب ــ رجل ــ

خير، بما لذلك من مردود أسطوري في وعي وذاكرة الإنسان الشرقي، وهو ما لم تشر إليه الدراسة مكتفية بتتبع أنواع الموت وطرائقه التي تمارس من قبل الرجل في الروايتين.

فالمرأة في موسم الهجرة إلى الشمال ضحية لرجل ــ دائماً ــ بينما الرجل ضحية ــ أيضاً ــ لظروف مجتمعية ساهم في خلقها مجتمع الضحية الأنثى بشكل ما، فعلاقة مصطفى سعيد بالأنثى هي دائماً علاقة آخرها موت مدمر، إذ إن «مصطفى» ــ كما يلاحظ المؤلف ــ ينتقم في شخص الأنثى الغربية لسنوات الذل والقهر والاستعمار، لينتهي بها الأمر إلى قتل نفسها بنفسها. موت الرجل ــ وهو المحور الثاني من القسم الأول ــ فهو دائماً موت علوي تتجلّى دلالاته في العودة إلى النيل مصدر الحياة «ذهب من حيث أتى من الماء إلى الماء» كما في بندر شاه .

ويتناول القسم الثاني من الدراسة الدلالات الفكرية المتصلة بعالمي الموت، وكيف عبرت الروايتان عن هذه الدلالات في قوالب فنية منتهياً إلى أشكال الموت لدى الطيب صالح توزعت على أطر ثلاثة:

الموت ــ الوفاة.

الموت ــ القتل.

الموت ــ الانتحار.

وكل إطار من هذه الأطر الثلاثة يكشف عن رؤى فكرية وفلسفية ونفسية اقتضتها طبيعة الأحداث والمواقف.. لكن النمط الأكثر بروزاً من أنماط الموت الثلاثة السابقة، هو النمط الثاني الذي يمثله : الموت ــ القتل، حين جعلته رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» يفجر طاقات متباينة من الدلالات الفكرية ووظائفها الفنية، وظل الموت ــ القتل في صراع الشخصيات يتراوح بين السلب والإيجاب وبين الرفض والقبول، وبين القوة والضعف وتتبع الدراسة التجليات المختلفة لهذا النوع من الموت عبر روايتي: «موسم الهجرة إلى الشمال» و«بندر شاه».

وتخلص الدراسة ــ عبر خاتمتها ــ إلى أنَّ للموت سلطاناً لا ينكر على عالم الطيب صالح الروائي، فقد وفق الروائي من خلال بناء هذا العالم في تقديم عطيل جديد هو: مصطفى سعيد (عطيل) القرن العشرين الذي حاول عقله أن يستوعب حضارة الغرب لا يبالي ولا يهاب، له القدرة على الفعل والإنجاز، يحارب الغرب بأسلحة الغرب.

وبعد: فسوف يبقى الطيب صالح وأعماله الروائية والقصصية ذخيرة لا تنضب لبحث الباحثين، نقاداً كانوا أم مؤرخين، فهو عالم ثري مليء بقضايا إنسان العالم الثالث الذي آمن به الطيب صالح وعبر عن همومه وآلامه، أفراحه وإحباطاته.

وفاته :

توفي في يوم الأربعاء ١٨ فبراير عام ٢٠٠٩ في لندن. وشيع جثمانه يوم الجمعة ٢٠ فبراير في السودان.

تقديم الرواية (موسم الهجرة إلى الشمال) ولغة النص فيها

- **تقديم الرواية** :

رواية الطيب صالح (موسم الهجرة إلى الشمال)، رواية من روايات الاغتراب التي تصور علاقة الشرق بالغرب .

وهي رواية كتبها الطيب صالح ونشرت في البداية في مجلة حوار (ع ٥-٦، ص ٥-٨٧) في أيلول/سبتمبر1966 ، ثم نُشرت بعد ذلك في كتاب مستقل عن دار العودة في بيروت في نفس العام.

وفي هذه الرواية يزور مصطفى سعيد، وهو طالب عربي، الغرب. مصطفى يصل من الجنوب، من *إفريقيا*، بعيدًا عن الثقافة الغربية إلى الغرب بصفة طالب. يحصل على وظيفة كمحاضر في إحدى الجامعات البريطانية، ويتبنى قيم المجتمع البريطاني، وهناك يتعرف إلى زوجته، جين موريس، وهي امرأة بريطانية ترفض قبول إملاءات زوجها. بعد أعوام يعود مصطفى إلى بلاده، حيث يلتقي هناك بصورة مفاجئة براوي القصة الذي عاش أيضًا في بريطانيا، لقصة نفسها تروى عن طريق قصص يرويها الراوي والبطل.

إن هذه الرواية ليست أول رواية تعالج هذا الموضوع في أدبنا الحديث، فقد تناوله عدد كبير من الروائيين، إلا أن المعالجة هنا في رواية (موسم الهجرة) أكثر عمقاً، فقد صوَّر الطيب صالح الصراع بين المجتمع الشرقي، والمجتمع الغربي بصدق، يدعو إلى الدهشة والإعجاب والتأمل.

"ولعل أول ما يلفت الانتباه في هذه الرواية هو التكثيف الشديد للأحداث، ويتضح ذلك من غزارة أحداثها وتعدد شخصياتها رغم صغر حجمها نسبيًّا، وهذا يعني أن أحداث الرواية ومساحتها الفعلية أكبر بكثير من مساحتها النصية، مما أدى إلى التكثيف والإيجاز والتلميح، وهذه السمات من أهم خصائص القصة الشعرية، لذلك أقول: موسم الهجرة إلى الشمال سردٌ شعريٌّ في إطارٍ روائيٍّ.

موسم الهجرة إلى الشمال، نص صراعي، تناظر بنيته بنية العلاقات الضدية بين الشرق والغرب، فهذه الرواية حافلة بالدمار، والضياع، والقتل، والانتحار، يسيطر العنف عليها وعلى عالمها، فقد أودى بحياة سبع شخصيات، منها بطل الرواية مصطفى سعيد.

ومرجعيات روايتنا، واقعية، في بيئة أسطورية، فهي وإن ارتبطت بالواقع ومرجعياته التاريخية فإن أصالة التكوين الفني فيها جعلتها تبدو كأنها قد نبتت من أرض أسطورية، من غير أن تعتمد على أساس موضوعي تاريخي، وفي نص هذه الرواية نوافذ موازية لنصوص روائية عربية وغربية، ولكن تكوينها الفني الأصيل جعل من أي أصول معرفية روافد تصب في نهرها المتدفق.

وهي نص قريب من المحكي الشعري قربه من السرد الروائي، فهو يوحي ولا يجزم، فينقل من الأحاسيس ما لا تنقله الكلمات. وهي من روايات الصراع بين الشرق والغرب، أو الجنوب والشمال، ومن روايات الاحتجاج، ففيها قدر كبير من الأسئلة عن كنه الإنسان في التاريخ، وكنه الإنسان في مجتمعه، وكنه الإنسان في مجتمع غير مجتمعه، فنص هذه الرواية يكاد يكون كله سؤالاً إشكاليًّا حتى إن النص قد وظف صيغة السؤال ذاتها مئة وإحدى وتسعين مرة، دون أن تحضر إجابة واحدة على مجموع هذه الأسئلة المضمرة أو الظاهرة.

وموسم الهجرة إلى الشمال من روايات البحث عن الذات العربية، فقد شعر الإنسان العربي بعد الغزو الغربي لأرضه وبلاده، أن هويته ليست راكزة في ذاته، أو أن ذاته فقدت مركزها. فهو واقع في دائرة تناقض مستمر بين اتصال مرغوب فيه بالغرب من جهة، وانفصال عنه من جهة أخرى "فقد دخل الغرب مستعمراً ومن النافذة نفسها تدفقت منجزاته الحضارية، وهو ما أدّى إلى انشطار الذات زمانيًّا (نحو الماضي) ومكانيًّا (نحو الغرب)، لذلك كانت محاولة الإمساك بالذات، والحفاظ على الأنا، أمراً عسيراً، إن لم يكن محالاً، فالغرب بالنسبة للآسيوي الحالم بالتحديث هو الآخر الذي يستدرج الحذر والإعجاب معاً.

وموسم الهجرة إلى الشمال (الرواية المنعطف) قد أصبحت معلماً يُؤرّخ به لتحوّل عميق في مجرى الرواية المعاصرة، والرواية الشاملة، فهي تلتقط من خصوصية تجربة الأفراد والمجتمع مشاهد وأحداثاً تجعلها موصولة الأسباب بالأفق الإنساني، وهي حدث ثقافي كبير، جلب لصاحبه شهرة واسعة خصوصاً بعد ترجمتها إلى الإنجليزية والروسية، إذ سرعان ما جلبت له شهرة واسعة حيث ذاع صيته وشاع خبره بين عشاق الأدب ومحبيه، فعلى سبيل المثال عندما ترجمت رواية موسم الهجرة إلى الشمال إلى الروسية، بيعت منها مليون نسخة في شهر واحد، وما زالت هذه الرواية بتركيبها المعقد محط أنظار ومحور دراسة الأدباء والنقاد على السواء.

ورواية موسم الهجرة إلى الشمال ليست قصة بطلها مصطفى سعيد بوصفه فرداً، وإنما قصته بوصفه رمزاً للمجتمع الشرقي، الباحث عن هويته الضائعة وحضارته الغائبة، فقد كان مصطفى سعيد واقعاً ورمزاً في الوقت نفسه، فعلاقته بجين مورس تخبئ خلفها رؤية الذات المبدعة التي قدمت طرحها الخاص بعلاقة الأنا بالآخر المؤطّرة بحدود القضية الأشمل، قضية المواجهة الحضارية بين نسقين متباينين من القيم بين الشرق والغرب.

وربما يكون أكثر ما يلفت النظر في الرواية تصوير موقف البطل من الغرب، هذا الموقف البالغ التعقيد، يندمج الهيام والإعجاب بالحقد والانتقام، وحيث يمثل البطل الضحية والسفاح والعاشق، ويمثل تداخل الأجيال وتناقضها، وتداخل الثقافات وتصارعها. فضلاً عن تمثيله ليقظة قارة هائلة جامحة فاتنة، ومصطفى سعيد بطل إشكالي يواجه أسئلة الانتماء إلى الوطن، ومعضلة التعاطي مع الآخر، الساعي إلى مصادرة انتمائه.

لم تكن حياة بطل الرواية مصطفى سعيد غير سلسلة من الغزوات الجنسية المؤكدة لرغبته العميقة في الاستشفاء الذهني من عقدة الخصاء، والكبت التي لحقته بفعل الغزو الغربي لبلده، ليتمكن من استرداد فحولته المسبية.

ولم يدخل مصطفى سعيد في صراع مع رجال الغرب، وهذا ما نريد ترسيخه في وجدان العربي من ضرورة وجود مثاقفة مع هذا الآخر، تقوم على احترام العقل والفكر العربي، وليس مثاقفة (جنسية)، وهو ما اقتصر مصطفى سعيد عليه في صراعه مع نساء الغرب، فكانت المرأة هي مقصده، يفكّر في جسمها ومباهجه، ويتفحش في وصفها، فقد أضحى زير نساء، وكده الفتوحات النسائية، وإغراقه في الجنس الطقسي، ونشوته بعلاقات السيطرة والإخضاع، ثم النبذ، فالنشوة والزهو بمضاجعة نساء الغرب كانت تحقيقاً لشفائه من عقدة الكبت والخصاء التي لحقته بفعل غزو بلاده ثقافيًّا وعسكريًّا، لذلك اقترن حضور الأنوثة الطاغية في المشهد الروائي بحضور المذكر الفحل الملاعب لنساء الغرب. وتلك حقيقة الاشتهاء المدمر الذي حدّد كثيرًا من العلاقات بين " الأنا / الذات العربية " والآخر / الغرب " في العصر الحديث، على سبيل المثال لا الحصر، وجدناه هنا في موسم الهجرة للشمال للطيب صالح موضوع البحث، وعند يحيى حقّي في قنديل أم هاشم، أو عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، أو لحظة ضعف لفؤاد صادق مفتي، أو السنيورة لعصام خوقير، أو الساخن والبارد لفتحي غانم، أو الحيّ اللاتيني لسهيل إدريس، وغيرها من الروايات التي لو تأملناها مليًّا لوقعت أعيننا على هذه المفارقة العجيبة، وهي على حدّ تعبير حسن النعمي، وهو يرصد تحولات الرواية السعودية في واقعها المعاصر : " أنّ الأنا /الذات العربية يُمثلها رجل، بينما الآخر / يُمثله امرأة " !! .

فهذا بطلنا في موسم الهجرة مصطفى سعيد في مقابل نساء الغرب، فقد حلّ بأرض الشمال غازيًا الغرب الآخر، زاده " مُدية " ذكورية لا تمل ولاتكلّ، وحقد تضيق به نفوس العالم أجمع، عاث فسادًا في أجساد العذارى، ودكّ بِمُديته كل الحصون المنيعة، فتهاوت " قلاع الشرف الأوروبي تحت وطأة أقدام الفارس الغازي " ليعود إلى بلاده نسيًا منسيًّا، ويموت غرقًا في النيل السوداني !! .

ذلك أنّ الرجل قد استوعب عقله حضارة الغرب، لكنها حطمت قلبه، حينما ذاب في تلك الحضارة وأخذ يدرّس الاقتصاد، ويسوق الأكاذيب، وينتحل الأسماء، ليوقع الأوربيات (الإنجليزيات) في حبائله، وصار يتنقل من فريسة إلى أخرى، لتغدو المرأة في (الموسم) هي موضوع الجنس والاشتهاء والانتقام، وكل الاستيهامات الذكورية الأخرى، كالامتلاك، والتحكم، والسيطرة، وإثبات الذات، وبسببه انتحرت ثلاث فتيات: آن همند، وشيلا غرينود، وإيزابيلا سيمور، وقتل زوجه جين مورس التي لم يستطع إليها سبيلا.

أوهم نفسه بإرادة قدرية قاهرية تسيطر عليه، لذلك سلّم جسده للنهر الذي سيأخذه نحو الشمال ، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية، يجري نحو الشمال، لا يلوي على شيء، قد يعترضه جبل فيتجه شرقاً، وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه غرباً، ولكنه إن عاجلاً أو آجلاً يستقر في مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال "، فقد أصبح فريسة مستساغة، عاشقًا قتيلًا بعد أن فقد كل حيلة للنجاة من قبضة هذا الآخر " لم تكن لي حيلة، كنت صيادًا، فأصبحت فريسة، وكنت أتعذّب " الموسم :١٢٨، وهو الغازي المنتحر " أنا العاشق الذي جاء من الجنوب، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيًا .." الموسم : ١٢٨، ولم ينجُ، فقد انتهت حياة مصطفى سعيد غرقاً في النيل، وأغلب الظن أن الغرق كان انتحاراً.

والحقيقة والواقع يؤكدان أن البطل العربي في رواية موسم الهجرة إلى الشمال /مصطفى سعيد /الشرق العربي، لم ينجح حتى اليوم من صدامه غير المتكافئ مع الشمال / الغرب /الآخر، الذي تسلّح بالقوة والعنف والخداع مع الحضارة المادية، والوعي المخادع، والفكر العلماني المدمر، بينما البطل العربي – المقتول /المنتحر /المُعدم لا محالة – يُقبل عليه غازيًا، وهو خالي الوفاض من الوعي والمعرفة وإدراك حقيقة هذا الآخر، تلك الحقيقة التي لا تُقاوم إلا بالعلم والوعي والتقدم والتطور ، واكتفى بطلنا – بطل موسم الهجرة، بل أبطال كثر

ضجّ بهم السرد العربي الحديث – بالتسلّح بالجنس ليس إلا، حيث يلوذون بالمرأة الغربية التي توهّموا أنّ النصر في أحضانها، ولقاء الشرق والغرب في فراشها، بينما هي في الحقيقة الوجه المخادع للغرب /الآخر، الذي يكتب دائمًا نهاية الشرق العربي /البطل العربي .. قتلًا، أو انتحارًا، أو ذبحًا، أو إعدامًا، أو احتلالًا، أو فقدًا للوعي أو الهوية !!.

فقد انتهت حياته بالاغتراب في الآخر، بعد أن عاش اغتراب القيم والذات في وطنه، ليكون غريباً في غربته، وعلى الرغم من ثراء هذه الرواية في أحداثها وأفعالها وحوارها ووصفها وسردها ثراءً يغري بعرضها ويوحي بسهولة بسطها، نجدها تكاد تستعصي على العرض " ذلك أن قصة موسم الهجرة إلى الشمال بما تملكه من تركيز شعري للحدث، تسمو على أية تلخيصات، لذلك لا يمكن أن يحقق عرض الرواية غايته المنشودة، ما لم يكن القارئ قد قرأ الرواية قراءة متأنية.

قراءة في عنوان ولغة النص في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال":

إن توجه القراءة لربط وقائع النص وشخوصه بالسياقات المضمرة أو الظاهرة، لا تتنافى مع عقيدتنا النقدية، في أن الإبداع يتجسد في كيفية استحضار هذه السياقات، والأدوات المستخدمة فيها، وليس بين أيدينا من وسيلة مادية سوى اللغة بكل مكوناتها الإفرادية والتركيبية، وبكل مردودها المعجمي، أو وظائفها النحوية.

وبهذه العقيدة تتجه القراءة الآن إلى العنوان الخارجي ليكون مدخلها الشرعي إلى المدخل الداخلي، وبخاصة مكوناته الإفرادية التي تبدأ بمفردة (موسم) التي تكاد تعطى الهجرة طابعا جماعيًّا، لكن السرد يقود هذه الجماعية إلى الخصوصية الفردية، ثم تأتى مفردة (الهجرة)،ولا تقتصر مهمتها على عملية الخروج من الوطن إلى الغربة، وإنما هي هجرة من نوع خاص، هجرة يمكن أن نقول عنها: إنها هجرة ثقافية ؛بل معرفية خُلقية قيمية في المقام الأول، لأنها

هجرة في الزمان والمكان، وهجرة في الداخل النفسي، والمسلك الحياتي، ثم تأتى مفردة (الشمال) لتقودنا إلى حقلين كان لهما حضور واضح في النص، هما:

حقلا (الزمان والمكان) بوصفهما الحقلين الكاشفين عن الحدود المضمرة للنص، فنلاحظ - مثلا – في النصوص الريفية حقلا صياغيًّا يميزها، وللنصوص الحضرية حقلها الخاص بها، وقد اجتمع الحقلان في نص (موسم الهجرة إلى الشمال) إذ كانت حركة السرد متحركة – في الأساس – بين لندن وقرية الراوي والخرطوم، فمفردة (الشمال) هي التي قادتنا إلى هذا الملحظ الصياغي، لأنها بحكم المواضعة تستحضر مقابلها (الجنوب)، وتردد الظرف المكاني (الشمال) يوازيه في العمق تردد الظرف المكاني (الجنوب)، وهو ما حول المكان إلى عالم متكامل من الأعراف والتقاليد.

وغواية النصية مع ظرف المكان، يوازيها غوايتها مع ظرف الزمان، وبخاصة الزمن الماضي، واللافت أن النصية تخترق كثيرا هذه الزمنية الماضية لتغادرها إلى لحظة الحاضر، ولا يكاد يخلو نص روائي من الظرف الدال على هذا الزمن :(الآن)، وتختلف النصوص في تعاملها مع الظرف تبعا لرغبة الراوي في الهروب من زمن إلى آخر، ومحاولة الاستقرار فيه استقرارا دائما أو مؤقتا، وهو ما يمكن متابعته في نص (موسم الهجرة إلى الشمال)، حيث بلغ تردد هذا الظرف تسعة وأربعين ترددا، أي أنه كان يتردد مرة واحدة كل صفحتين على وجه التقريب، ومع هذا التردد يدخل الراوي والمتلقي في إطار اللحظة الزمنية، وقد حرص النص أيضا على أن يردد دال الشمال (اثنتين وعشرين) مرة، وكأنه يستمتع بترديد هذا الدال، لكي يستجلب نواتجه الدلالية التي تفجرت من العنوان الخارجي، ثم تسربت في المتن الداخلي، بحيث تجمع النصية بين الشخصية الأصلية والشخصية الإسقاطية في منطقة (القلق) الوجودي المحايدة بين (الجنوب والشمال)، حيث يسعى الجنوبي إلى صقيع الشمال لينشئ جسرًا مشتركًا بين هذين الطرفين المتناقضين، وإن لم يكتمل هذا الجسر بحال من الأحوال وظل الشمال في

منطقة الثقل الحضاري، بوصفه بشارة الإنقاذ الثقافي، لكنها بشارة ظلت في حيز الاحتمال الذي قد يتحقق وقد يغيب هذا التحقق، أو لنقل إن البشارة ظلت في دائرة (التمني)، فالاتجاه شمالًا كان محور السرد الذي صاحب مصطفى، وهذا الاتجاه هو الذي صار فيه الراوي سابحًا إلى الشاطئ الشمالي للنهر في محاولة للخلاص من قدر الغرق الذي حاصر مصطفى .

"إن القراءة الواعية لنص (موسم الهجرة إلى الشمال) تدرك مدى اعتماده على بنية المفارقة بوصفها بنية لصيقة بالدرامية من ناحية، ولصيقة بالصدامات الفكرية والنفسية والجسدية من ناحية أخرى، وهو ما يعنى أن المفارقة إحدى الركائز الأساسية التي تعتمدها الأدبية، وبخاصة الأدبية المنفتحة، تلك التي تتعدد نواتجها مع تعدد القراءة، أو لنقل: إن ناتجها يقع – دائما – تحت طائلة الاحتمال، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا سارت خطوط الدلالة في اتجاهات متعاكسة، أو على الأقل تعدل من اتجاهها بعض التعديل". (عبد المطلب، ٢٠١٣، ص ٣٠٧)

ويمكن متابعة كثير من هذه الخواص التقابلية التي تنتج المفارقة أوليًّا، ثم الدرامية تبعا لها، وهو ما يمكن أن نتابعه في نص (موسم الهجرة إلى الشمال) ذلك إن قراءة العنوان نفسه قراءة مدققة يمكن أن تقودنا إلى الوقوع على هذا التقابل، وذلك بالنظر في الموروث اللغوي الذي قادنا إلى مقولة (النقيض يستدعي نقيضه)، وهو ما جعل حضور مفردة (الشمال) في العنوان الخارجي أو المتن الداخلي محققة لبناء المفارقة ببعدها الدرامي في مجمل النص، والحضور في المتن لمفردة (الشمال) يستدعي حضور الفضاء النصي بوصفه مخزنَ المحذوف أو المضمر في المتن، وبين الشمال والجنوب، يتحرك السرد منحازًا إلى هذه الجهة أو تلك، أو يتوقف بينهما، وبين الانحياز والتوقف، أقامت النصية مفارقتها على الصدام الحضاري والثقافي بين الجهتين (الجنوب والشمال)، ويقود هذا الصدام الكلي إلى صدام محدد بين الشخوص؛ شخوص الشمال، وشخوص الجنوب، ثم شخوص الشمال مع شخوص من الشمال، وشخوص الجنوب مع

شخوص من الجنوب في صراع ذاتي نتيجة وقوعه بين رَحى عالمين مختلفين في كل شيء، يتصارعان بداخله .

ففي الشمال عالم حضاري له طقوسه الحياتية والاجتماعية التي حملها الراوي معه، ثم حملها قريبه مصطفى في الجنوب عالم الموروث المنغلق على طقوس مغايرة في قليل أو كثير عن تلك الطقوس التي حملها الراوي معه، ثم تابعه الراوي في هذا المحمول الثابت مع بعض إضافات جلبتها الحضارة الوافدة، لقد تابعنا في قراءة ما قبل النص: الغلاف والعنوان وهذه المتابعة تثير تساؤلا عما سوف تتجه إليه القراءة في مرحلة (النص)، ثم مرحلة (ما بعد النص)، والمقصود بالنص (المتن السردي) بكل مكوناته وبكل ركائزه التي يمكن إيجازها في ست ركائز، تبدأ من (النصية) وحقوقها التي اكتسبتها في زمن الحداثة، ثم علاقة هذه الحقوق بالمرجعية الواقعية الخارجية، اتصالا وانقطاعا، وهو ما طرحته الحداثة خلال تقنيتين (الانفتاح والانغلاق)، وضرورة المنهج سوف تقود النصية إلى النوعية، ومتابعة النصية ثم النوعية يجعل مواجهة القراءة للمتن السردي مواجهة مباشرة في المستوى الثاني من مستويات القراءة في هذه الدراسة، وتبدأ المواجهة مع الراوي في الفصل الثاني.

المبحث الأول :

الاغتراب والتمرد في المتن السردي في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"

يعد إدوارد سعيد واحدًا من أهم المفكرين العالميين الذين نظروا لمقاومة الفرقة والانقسام فيما بعد الاستعمار، وقد أثرت أفكاره في الفكر العالمي بوصفه واحدًا من أهم منظري العالم في منتصف القرن العشرين، ولم تنحصر تنظيراته في مجال محدد، بل تداخلت أفكاره مع تنظيرات العولمة في السياسة والأدب عموما والسرديات خصوصا، وكل هذا يقودنا إلى سياق الكتابة الأدبية وأنساقها الإفرادية والتركيبية، ثم ربط كل ذلك بالسياق العالمي للعولمة بعد عصر الاستعمار (Said عموما)، Edward، 1991، p. 151).

وهذه الرؤية العالمية تقودنا إلى ما نحن بصدده من قراءة نص أدبي سردي، وكيف تكون علاقة النقد الأدبي بالنص الأدبي، فأحيانا يفرض النقد الأدبي على النص تفسيرات وتحليلات مختلفة؛ لأنه يتناول هذه النصوص من منظور محدد، سياسيا أو اجتماعيا أو ثقافيا، وهذا ما أحاول تجنبه، وأن أقرأ النص الذي بين أيدينا بوصفه إبداعا أدبيًّا له حياته الفنية الخاصة، أما دراسة الأدب من منظور واحد فقط فإنها تجرده من عدة سمات لها مدلولها وأهميتها البلاغية والجمالية.

وهنا أحاول أن أجمع بين مفهوم الثقافة والعولمة من جانب والتقنيات السردية من جانب آخر، وربط ذلك كله بالمتلقي، وهذا يعرف ب "تلقى القارئ" reader response.

وعبر جدلية العلاقة بين المداخل النصية والمتن السردي في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، هذا الجزء من الدراسة أحاول أن أظهر التأثيرات الثقافية المتركزة في النص على درجة التلقي عند القارئ عن طريق مجموعة من التقنيات السردية، والصور التي قام برسمها الطيب صالح بقصد أو بغير قصد في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، وسوف أحاول سبر أغوار " الذات" و"الآخر" في

ضوء قراءة المتن السردي وتوجيه عناية بالغة بالبناء الصياغي؛ لأنه المادة الوحيدة المحسوسة نصيًّا نوجه عناية خاصة إلى (الراوي) ومجموع الشخوص ووظائفها ومهامها السردية والحوارية، وبخاصة النماذج النسائية، حتى لا تتحول قراءة النص إلى محاولة إدخاله قوالب سابقة التجهيز.

ونبدأ بتناول الراوي، وصورة الذات، وتعدد الأصوات السردية داخل موسم الهجرة إلى الشمال:

أولا: الراوي وليس من مهمتي في هذه القراءة تناول القضايا النظرية، وفى مقدمتها مفهوم (الراوي)، لأن كل قارئ لنص روائي يدرك هذا المفهوم على نحو من الأنحاء، وبخاصة أن التراث العربي قد تعامل مع هذا المصطلح على مستويات متعددة، إذ كان هناك رواة للشعر، ورواة للحكايات الأسطورية والشعبية والسير، ثم كانت وظيفة الراوي دينيا، تلك التي نقلت لنا النصوص المقدسة.

"ومن المهم الإشارة إلى أن (الراوي) قد استحوذ على حقوق شرعية، وفي مقدمتها: حق نقل النص من المؤلف إلى المتلقي، كما استحوذ على حقوق غير شرعية، منها تدخله في تشكيل النص على نحو يناسبه، ويوافق توجهاته الأيديولوجية والفلسفية والحضارية، على معنى أن الراوي قد استحال إلى نسق ثقافي في ذاته، وهذا التدخل، يمكن أن نتابعه – مثلا – في محاولة الراوي الداخلي في النص أن يعدل من الصورة الخاطئة التي ارتسمت في الأذهان عن الحضارة الغربية، فبعد عودة الراوي من أوروبا كان التساؤل الذي يلاحقه عما عاشه في أوروبا: " هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المعيشة رخيصة أم غالية؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء؟ يقولون إن النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال، وسألني ود الريس: هل صحيح أنهم لا يتزوجون، ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام ؟ دهشوا حين قلت لهم: إن الأوروبيين – إذا استثنينا فوارق ضئيلة – مثلنا تماما، يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة وهم – عموما – قوم طيبون" (موسم الهجرة إلى الشمال:

١٨) ولم يستأثر الراوي الداخلي بالسرد، بل أتاح لغيره من الشخوص أن يشاركوا فيه، وبخاصة عندما يتجه مسرودهم إلى كشف المغايرة بين حضارة الغرب وحضارة الشرق، وأن الشرق أخذ من حضارتهم الشكل، بينما ظل الجوهر على حاله.

وغير خاف على الناقد الحصيف أن هذه الرواية (موسم الهجرة إلى الشمال) قد نالت شهرتها من كونها من أولى الروايات التي تناولت بشكل فني ذلك الصدام بين الحضارات، لاسيّما بين الشرق والغرب، أو بين العالم العربي والآخر /الغرب، ذلك الصدام الذي تجلّى في الأعمال الوحشية دائمًا، والرفيقة الشجيّة أحيانًا لبطل الرواية مصطفى الذي آثر الاقتراب من الغرب /الآخر للاقتراب أكثر من الذات العربية، لكنه يرتطم ببيئة الآخر وواقعه ارتطامًا عنيفًا، حينما تولّد بداخله عقدة التفوق الغربي، وعايش حقيقة الغرب / الآخر عن قرب مكان الصدام بين الشرق والغرب .

والراوي في موسم الهجرة إلى الشمال يجمع كل الأماكن والوظائف التي حددها النقاد للراوي، فهو الراوي الخارجي والداخلي المشارك، وهو الذي يحتل منطقة الخلف ليتابع منها كل الوقائع والشخوص، ويحتل المقدمة أحيانا ليقود الأحداث، ويحتل المنطقة الفوقية ليروي أشياء أسطورية لا يقبلها العقل، وهو الراوي العليم، وهو الراوي الذي يتجاهل أحيانا، وهو الراوي الذي يتوحد بالكاتب حينا ثم يتوحد بالبطل (مصطفى سعيد) طوال السرد، وأحيانا يكون الراوي الجاهل، وهو ما نتابعه عندما لم يعرف من أين جاء مصطفى سعيد وما طبيعة وجوده في القرية، بالرغم من توحده به في العمق السردي الذي يوثق هذه الحقيقة، أو لنقل ليس جاهلا، إنما يدعى الجهل ليزيد شخصية مصطفى غموضا، وأحيانا يكون الراوي الكاذب ... إلخ. وسوف أتناول كل هذه الركائز والوظائف بالتفصيل في الصفحات الآتية.

وتناول الراوي ونحن بصدد نص (موسم الهجرة إلى الشمال) يقودنا إلى مجموعة الركائز التي عرضنا لها، إذ إن قراءة النص قد أوقفتنا على هذا (الراوي) وهو يحكى عن عودته من الغربة في أوروبا: ومع توظيف ضمير المتكلم، يوهمنا أنه يقدم نوعا من السيرة الذاتية، لكن ما إن نقع في هذه الخديعة الفنية حتى ينسل هذا الراوي من السرد الذي ينتمي إلى السيرة، ليتركنا في مواجهة سرد مقابل عن شخصية (مصطفى سعيد):

وهو بطل رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) وهي بطولة تثير كثيرا من التساؤلات حول مجموع الوقائع، وتدفعنا إلى مجموعة من الاحتمالات المتقابلة بين الصدق أو الكذب والوهم أو الحقيقة، وهو ما جعل النص يأخذ نسق التعدد، فهو الرواية المتعددة القصص، كما يتجلى في تعدد الرواة، فهناك الراوي العالم بكل شيء، وهناك الراوي الذى يقدم المادة القصصية على أنها حقيقة ثابتة أكيدة. ولذلك تأتى الرواية في صيغة ضمير الغائب تارة وعلى صيغة ضمير المتكلم تارة، وضمير المخاطب قليلا". (قاسم، ٢٠١٩، ص ٥٨)

والسرد المتعدد الأصوات هو الذى يظهر الصدمة الثقافية لمصطفى سعيد بعد رحلته إلى الشمال، وهذا السرد يوضح البلبلة والتخبط الذي عانى منه البطل، فالأصوات المتعددة منها صوت السود وصوت البيض، وهذه الأصوات تشكل الأسلوب السردي للرواية .

إن قصة مصطفى بكل جوانبها الغامضة والمظلمة تأتى على لسان كل هذه الأصوات، وكلها أصوات وصور متباينة للعالم الشمالي والجنوبي، وتشترك كل هذه الأصوات للكشف عن ذات مصطفى سعيد الجنوبي في صدام ثقافي وحضاري مع الآخر، ولكن أهم هذه الأصوات كلها هي رواية "مصطفى سعيد" التي قدمها بنفسه للراوي، والتي نكتشفها من بين خلايا النص، ويجب ألا ننسى أن مصطفى سعيد قد وصف نفسه بأنه كاذب، وأن الراوي لا يثق في كلامه، وأنه يعده

أكذوبة، وهذا يجعل المتلقي يقع في دائرة الشك والحيرة بين الأصوات السردية المختلفة وبين ما هو حقيقة وما هو أكذوبة، ويؤكد هذا ما يقوله الراوي:

"أحيانا تخطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة أن مصطفى سعيد لم يحدث إطلاقا، وأنه فعلا أكذوبة، أو طيف أو حلم، أو كابوس ألم بأهل القرية تلك ذات ليلة داكنة، خانقة، ولما فتحوا أعينهم في ضوء الشمس لم يروه " (موسم الهجرة إلى الشمال: ص ٥٠) .

"وإذا كنا أكاذيب فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا" (موسم الهجرة : ص ٥٣)

- الراوي الكاذب:

والجدير بالذكر أن الراوي الكاذب شكل من أشكال التوصيل القصصي التي أدخلها وين بوث ضمن تصنيفه لنوعية الراوي؛ فهناك – فيما يرى – راو يمكن أن نثق به (reliable) ، وراو لا نثق به (unreliable). ومن الغريب في رواية موسم الهجرة إلى الشمال أنها برغم كل الإشارات التي تؤكد أن مصطفى سعيد كاذب، وأنه يتقمص شخصية ليست شخصيته، فإن القارئ يقع في الوهم ويصدق قصته، وهنا نجد أن المفارقة القصصية تتمثل في أن الراوي يقدم شخصية أخرى على أنها سلسلة من الأكاذيب الملفقة، ويدفع القارئ، برغم ذلك، إلى تصديق هذه السلسلة وهذا الأسلوب القصصي يخلق الوهم، ويكشفه في نفس الوقت" (قاسم، ص ٦٠).

ومن المعتاد أن يكون الراوي هو موضع ثقة القارئ دائما، والراوي هو الذي يحدد الأبعاد النفسية للشخصيات ونوعية هذه الشخصيات، ويدخل في قلب القارئ الشك في شخصية ما إذا وصفها الراوي بأنها كاذبة أو مختلة أو مزدوجة ... إلخ، ورغم أن راوي "موسم الهجرة" وصف مصطفى سعيد أنه أكذوبة صراحة بقوله: "هل كان من المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد؟ قال إنه أكذوبة، فهل أنا أيضا أكذوبة؟ " إلا أن القارئ يصدق مصطفى سعيد، ويصدق قصته بكل ما جاء فيها، وهذه الثقة في كلام مصطفى سعيد تولدت عن ثقة القارئ

في مصطفى سعيد نفسه؛ لأن الراوي في موسم الهجرة إلى الشمال عندما قدم المادة القصصية قدمها بضمير المتكلم، ولكن عندما يبدأ في تقديم حياة مصطفى سعيد نجد أنه يجعل مصطفى هو الذي يتحدث عن حياته بضمير متكلم جديد مما يدخل الثقة في قلب القارئ، ويصدق مصطفى لأنه يتحدث عن حياته بنفسه، فلا يدخل دائرة الشك والأكذوبة عند القارئ.

- التوحد بين المبدع والراوي ومصطفى سعيد:

اللافت أن قراءة المتن السردي قادتنا إلى مواجهة مزدوجة بين الظاهر والباطن، فالظاهر يقدم لنا شخصيتين منفصلتين، هما: (الراوي ومصطفى سعيد) أما الباطن، فيجمع بين الشخصيتين في كينونة واحدة، أي أن الراوي هو مصطفى سعيد، ومصطفى سعيد هو الراوي، والذي أراه أن الشخصيتين قد خرجتا من حدودهما النصية لتلتحما بالمبدع، وهو منطق الأحداث الروائية، ومنطق المسار الحياتي لهذا المبدع، وإن كنت أتحفظ على هذا الملحظ الأخير، لأن عقيدتي النقدية تفصل النص عن مبدعه تماما، حتى لا أحمل هذا المبدع بتبعات النص وأوزاره " (عبد المطلب، ٢٠١٣: ص ٣٠٠).

وأنا أتفق مع ما ذهب إليه د. محمد عبد المطلب، ولكن أغايره بعض المغايرة في نقطة انفصال النص عن مبدعه، فالنص جزء من كاتبه، والراوي في موسم الهجرة إلى الشمال هو لسان حال الكاتب، ومراقب للأحداث وشاهد عليها، وليس جزءا من الصراع بالشكل الفعلي الذي يقع فيه مصطفى سعيد ؛ والدليل على صحة ما أذهب إليه أن الكاتب درس في لندن وعاد للسودان، والراوي درس في لندن وعاد للسودان، ومصطفى سعيد درس في لندن وعاد للسودان، ولا يمكن أن يكون كل ذلك محض مصادفة، ودليل آخر هذه الدماء العربية التي ظلت تجري في عروق وأوصال مصطفى من ذِكْرِ نماذج عديدة من موروثه الإنساني ؛من أشعار أبي نواس، وتوق نفسه وحنينه لعصر المأمون، وعادات وتقاليد وطقوس وعقائد بلاده، مما ظهر جليًّا في صلاة الأب أو أوراده، أو في العودة إلى الذوبان

في البيئة السودانية عبر الحكايات الشعبية والخرافية والأساطير سواء بسواء، إلى غير ذلك من تأثير اللاشعور الذي ظل مسيطرًا على الطيب صالح حتى أصبح محورًا مركزيًّا في دائرة فكره وسرده، مسيطرًا على بطله وكأنه هو .

لكن على أيه حال نعود من هذا الربط الثلاثي: (المبدع – الراوي – مصطفى سعيد) إلى الثنائية التي تجمع بين (الراوي – مصطفى سعيد)، حتى تبدوا لنا كأنهما توأمان، فكل منهما قام بوظيفة الراوي والمروي له، والسرد يتبعهما متابعة محسوبة تؤدي إلى تكامل الشخصيتين على مستوى النسق الحياتي، وعلى مستوى السرد الروائي، ومن ثم فإن كل شخصية كانت تحاول استكمال الجانب السردي الذي غيبته الشخصية الأخرى، ويبدو أن الراوي كان واعيا بهذه التوءمة بينه وبين مصطفى سعيد، وأقواله في النص تشى بذلك، مثل قوله بأنه أكذوبة مثل مصطفى الذي أشرنا إليه قبل ذلك، ويبدو أن مصطفى كان على وعي – هو الآخر – بتوحده مع الراوي، ومن ثم سعى لأن يستكمل الراوي مسيرته الحياتية بعد موته، من أجل ذلك جعله وصيًّا على زوجه وولديه، إذ يقول في الوصية: "إنني أترك زوجتي وولدي وكل مالي من متاع الدنيا في ذمتك، وأنا أعلم أنك ستكون أمينا على كل شيء" (موسم الهجرة إلى الشمال: ص ٤١، ٤٩).

ويبدو أنه مع الوصية تتضح ظاهرة التوحد بين الشخصيتين، وأن المسئولية السردية تحتم على الراوي أن يستكمل مسيرة مصطفى الحياتية.

وبعض الشخوص في النص قد راودهم هذا الإحساس بالتوحد بينهما كما راود القارئ، إذ يذكر الراوي أنه عندما كان في الخرطوم، وفى زيارة أحد زملاء دراسته في لندن، دار الحديث عن أول سوداني تزوج أوروبية، وتردد اسم مصطفى سعيد، وفجأة سأله الرجل "هل أنت ابن مصطفى" (سعيد الرواية) وهو ما يعنى التوحد بين الشخصيتين من حيث الهيئة الجسدية وملامح الوجه. وتردد على لسان الراوي "إنه غريمي مصطفى سعيد ... ووجدتني أقف أمام نفسي وجها

لوجه، هذا ليس مصطفى سعيد، إنها صورتي" (موسم الهجرة إلى الشمال: ص ٩٠)

ويصل التلاحم بين الراوي ومصطفى سعيد قمة ذروته عندما يتعمد السرد موت مصطفى غرقا، لكي يتيح للراوي أن يستكمل المسيرة الحياتية له، وقد مهد لذلك بتلك الوصية التي تركها مصطفى للراوي، وبموجبها هو المسئول الأول عن أسرته بعد موته. ومن الواضح أن ما قلناه عن الراوي الأساس الذي امتلك سلطة إنتاج السرد وتوابعها، من بناء الشخوص والحوادث لم يكن يحول بين النصية وسعيها للحد من هذه السلطة، أو لنقل إنها آثرت أن تعطي بعض الشخوص مساحة سردية في إنتاج السرد، فكثيرا ما رأينا بعض الشخصيات تحتل وظيفة (الراوي) حينا، و(المروى لها) حينا، و(والمروي عنها) حينا ثالثا.، ويبقى أن نقول : إنّ المبدع / البطل / الراوي / الذي ظلّ محورًا مركزيًّا في دائرة السرد على امتداد أحداث الرواية، إنّما هو المبدع الطيّب صالح الذي رأى متعته هنا في هذه الرواية في مشاهدة ذاته / الأنا في شخصية (عطيل /الغربي)، وقد جاء سرده مصرحًا بذلك حينما كان يُقرن في ذهنه ومخيلته كثيرًا بين عطيل (الغربي) وعطيل (العربي)، كما جاء في هذه المناجاة للذات، والتي كشفت دلالة الأنموذج بوضوح وجلاء . " نعم أنفك مثل أنوف العرب في الصور. نعم هذا أنا، وجهي عربي كصحراء الربع الخالي، ورأسي أفريقي صور لطفولة شريدة " الرواية : ص٣٦، " رائحته رائحة الأمطار في صحاري بلاد العرب " الرواية : ١١٧.

المبحث الثاني

النموذج الإنساني النسوي وارتباطه بالمكان:

يحتل مصطلح " النموذج " في الآداب العالمية مكانة مهمة، إذ يرتكز على تاريخ عريض متشابك، فقد استخدمه " شيلينج" في ألمانيا بمعنى الشخصية العالمية العظيمة التي تصل في أبعادها إلى حد الأسطورة، مثل: "هاملت" و" دون كيشوت" و" فاوست"، ويلاحظ أنه قد انتقل بهذا المعنى إلى الأدب الفرنسي، ليحل محل مصطلح قديم كان شائعا حينئذ هو "caractere" أو الخواص الفردية، كان الناقد الفرنسي الكبير " سان بيف " قد أخذ يدعو لنظريته في النموذج أو العائلات الروحية مركزا انتباهه على دراسة القرابة الروحية بين مجموعات خاصة من الكتاب، أكثر من دراسة الشخصية في أدبهم، حتى جاء "بلزاك" وكتب في مقدمته للكوميديا البشرية سنة ١٨٤٢ يقول إنه يعتبر نفسه دارسًا للنماذج الاجتماعية، على أساس أن الحياة بالنسبة له " مجموعة من الظروف الصغيرة" على الروائي أن يضخمها حتى تصبح حجم كرات مثالية، وينبغي أن يختار من بين هذه الظروف العديدة ما كان طبقا للنتائج التي تترتب عليه – بغض النظر عن أهميته المطلقة – جديرا بتكوين عناصر هذه الدراما التي هي بالفعل قوام كل رواية، فعليه أن يضخم الشخص حتى يبلغ مستوى الرمز، وإن لم يكن خليقا بذلك، مثل " سيزار بيروتو الذي هو في ذاته مخلوق عديم الذكاء والأهلية.

"فبلزاك " إذن يميز" الحقيقي في الطبيعة "من" الحقيقي في الأدب "والأول غالبا ما يكون شرسا فظا، لا يمكن أن يدخل في عمل فني دون أن يصدم بعنف ذوق القارئ، أو يبدو له غير معقول، وعلى الكاتب أن ينقله بالتأليف إلى المستوى الأدبي مستعيرا لذلك عناصر متعددة من نماذج مختلفة، وأن يشيد بناء جديدا يحمل طابع عبقريته كفنان. (فضل، ١٩٩٥، ص ١٠٨)

وقد عكس النص الروائي فلسفة الأدب في تمثيله للحياة على المستوى الجماعي لا الفردي، باعتبار أن المجتمع هو المنتج الفعلي للأعمال الإبداعية، فالقارئ حاضر في ذهن الأديب، وهو وسيلته وغايته في آن واحد.

فقد تضمنت مصائر الشخصيات النسائية في نص "موسم الهجرة إلى الشمال" العديد من الرسائل المعنية بالصدام بين الشرق والغرب، للوقوف على أسباب هذا الصدام، فجاء التحليل النقدي المنبثق من واقع هذا الصدام بين شخصيات النص.

والنصية في موسم الهجرة للشمال كانت تستهدف إدخال الشخوص في مجموعة من العلاقات والتفاعلات المركبة، فبعضها يتحرك على السطوح، وبعضها الآخر يتحرك في العمق، ومن ثم استوعبت القراءة كمًّا هائلاً من الدرامية، وتوابعها من أبنية المفارقة التي أدت إلى إنتاج المأساوية والدموية في تصوير الصراع بين الشرق والغرب، وبين شخوص الجنوب والجنوب، وشخوص الشمال والجنوب عن طريق بعض الصور للعلاقات الجنسية التي صبغت الصياغة بقدر وافر من الخشونة حينا، والنعومة حينا آخر، ويمكن أن نتابع بعضا من هذه الخشونة في صراع شخصيات الجنوب مع الجنوب في السودان، وهذا يتضح في وصف مقتل حسنة وود الريس، وسوف أتحدث عنه في مكانه من صورة العلاقة الجنسية في الجنوب.

أما النعومة فيمكن أن نتابع بعضا منها في حديث الراوي إلى نفسه بعد عودته من زيارة مصطفى سعيد في بيته، والسرد في موسم الهجرة إلى الشمال أقام مفارقته على الصدام الحضاري بين الجنوب والشمال في خلال رحلة مصطفى سعيد إلى لندن (الشمال)، يتورط عامدا في عدة علاقات جنسية مع أربع سيدات تنتهي حياتهن بالموت المأساوي، ويعترف مصطفى بأنه وظف ثقافته الشرقية في الإيقاع بفرائسه النسائية، يقول: أقرأ الشعر، وأتحدث في الدين والفلسفة، وأنتقد

الرسم، وأقول كلاما عن روحانيات الشرق، أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة في سريري، ثم أسير إلى صيد آخر". (موسم الهجرة إلى الشمال ص ٦٧)

وبرغم ما تلقاه مصطفى سعيد من العلم، وبعد أن أصبح عالما في الاقتصاد، ونجم المجتمع الإنجليزي الراقي، هذا كله لم يضمن له السلام النفسي والطمأنينة التي كان يحلم بها، فهذه العلاقات الجنسية، وأسلوبه في فعل كل شيء حتى يوقع المرأة الفريسة في السرير، كان وسيلة لتعويض عقدة النقص الذي كان يشعر به في المجتمع الشمالي الأبيض، واللافت أن أهل الشمال قد انخدعوا كثيرا بهذا المسلك الملتوي من مصطفى الجنوبي الأسود، أو لنقل أدخلهم في ازدواجية ثقافية تصادمية لا تعددية ثقافية عادلة، فقد ذكرت مذكرات مصطفى سعيد أن أستاذه في أكسفورد، مؤسس حركة التسلح الخلقي قال له إنه خير مثال أن مهمة الشمال في أفريقيا عديمة الجدوى، فرغم كل المجهودات التي بذلوها في تثقيفه، كأنه خرج من الغابة لأول مرة، لكنه لم يتغير، وفي محاكمته بتهمة قتل زوجته حاول نفس البروفيسور الدفاع عنه، ونفى التهم عنه بحجة أن مصطفى إنسان استوعب عقله حضارة الغرب لكنها حطمت قلبه، حينما استثارته بماديتها وحداثتها ليتصادم ويندفع باندفاع الدماء في عروقه دون أن يتحقق، وفي ثورة غضب طائشة يتحول إلى وحش قاتل لا يشفي غليله سوى سفك الدماء ..

وقد تكون طريقة مصطفى سعيد هذه وعلاقته الجنسية غير السوية والعدوانية هي بمثابة المعادل الموضوعي للاستبداد السياسي والقهر الذي عانى منه الجنوب في أثناء الاستعمار الإنجليزي للسودان، وعلاقته الجنسية كانت ترمز إلى رغبته اللاشعورية في الانتقام من الشمال وممارسة الفحولة الذكورية على كل سيدات الجنس الأبيض، فهو الأفريقي الذي كل زاده "مُدية" ذكورية عاث بها فسادًا في أجساد العذارى، والذي وصفه أستاذه "كأنه للتو خارج من الغابة"، وهذا يترجم رغبته في الانتقام من الغرب في صورة الانتهاك الجنسي والجسدي للمرأة الغربية، والدليل على ذلك نجد مصطفى يقول في مذكراته :

"كنت أسمع صليل سيوف الرومان في قرطاجنة، وقعقعة سنابك خيل اللنبي وهى تطأ القدس، والبواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود، وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول (نعم) بلغتهم، إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوروبي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل ". (الرواية: ص ٦٨)

ثم يأتي تصريحه المباشر بأنه جاء لينتقم: "نعم يا سادتي: إنني جئتكم غازيًا في عقر داركم، قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ". (الرواية : ص٦٨)

وهذا الصدام المرتبط بالأماكن والجهات والشخوص حوَّل موسم الهجرة إلى الشمال إلى بناء للمفارقة بين ثقافة الشمال والجنوب، وكيف تتلقى كل جهة الثقافة الجنسية والعلاقات الجسدية مما انعكس على صورة المرأة هنا وهناك من خلال هذه العلاقات، ففي الشرق العلاقات الجنسية تكون مقبولة بأي شكل وبأي صورة إذا كانت في إطار الزواج الشرعي، وهذا يختلف عن ثقافة الغرب والشمال، فالعلاقات الجنسية تتعلق باللون والعرق، إذن فالعلاقة بين مصطفى سعيد الأسود والنساء البيض هي علاقة السيد بالعبد، وعندما حاول مصطفى أن يقلب النظام ويقلب العرف ويحاول الانتقام عن طريق الجنس، ويجعله وسيلة للانتقام بدلا أن تكون العلاقة مبنية على الحب، فتلقى مصيره المحتوم بالمحاكمة والطرد من لندن، والرجوع إلى بلده السودان، ثم الموت مهزوما في النهاية.

والآن أحاول رصد هذه العلاقات الجنسية من خلال صورة المرأة البيضاء في الشمال:

"شيلا جرينوود": هي المرأة الأول التي أدخلها مصطفى في سريره كصيد وانتهكها جسديا، وكان أول لقاء بينهما في مطعم "سوبو" وكانت أول محطة نزل إليها مصطفى في لندن، وقد عرض عليها مصطفى سلسلة من العاج الأفريقي،

فتقع المرأة البيضاء المرتبطة بثقافة الشمال في غرام ذلك الأفريقي الأسود القادم من الجنوب السوداني .

أما المرأة الثانية فهي "إيزابيلا سينمور" فقد قابلها مصطفى سعيد في حديقة هايد بارك " وهى صورة للحرية والديمقراطية التي يحلم بها الشرق، ورأت في تكوين مصطفى وفحولته الذكورية، بعضا مما ينشده الغرب البارد في ذلك الشرق الحار والقوى في تكوينه الجسدي، وكانت إيزابيلا تشبه مصطفى بالأسد آكل لحوم البشر وهو يطارد الفيلة في الغابة، فقد كانت ترى فيه نوعا من أنواع الوحشية والهمجية، وهو نفس التشبيه الذي ذكره البروفيسور في المحكمة عندما قال أنه يشعر أن مصطفى لتوه خارج من الغابة . أما المرأة الثالثة فهي: "آن ماهيند": وهي ضحية ثقافة مصطفى الشرقية وآفاقه الأرجوانية، وكانت اللغات الشرقية في أكسفورد وترى أن علاقتها بمصطفى جسر بين الشمال والجنوب، وعندما لم يتحقق حلمها قررت الانتحار، ويعترف مصطفى بخطته في الإيقاع بالفريسة قائلا:

"قد عرفتها وهي دون العشرين، فخدعتها وغررت بها وقلت لها نتزوج زواجا يكون جسرا بين الشمال والجنوب، وحولت التطلع في عينيها الخضراوين إلى رماد..". (الرواية : ص ٧٢)

آن همند وشيلا وجرينود : هؤلاء النساء الثلاث انتحرن لأنهن عجزن عن ممارسة الحب بشكل طبيعي البطل، لأن علاقته بهن كانت علاقة مبنية على الرغبة في الانتقام من الغرب عن طريق السيادة الجنسية في العلاقة بهؤلاء النسوة البيض، وفى النهاية استسلمن وانتحرن. أما الصدام الثقافي بين الشمال والجنوب فإنه يحدث مع المرأة الرابعة التي أذلت مصطفى سعيد، وانتهى الأمر بأنه قتلها وهى:"جين موريس"

كان يربطها بمصطفى علاقة جنسية أيضا، وتملكتها الرغبة والشبق تجاه مصطفى، ولكنها أيضا كانت تحتقره وتكرهه جدا، وظهرت جين موريس في حياة مصطفى عند محطة "فيكتوريا: في لندن، وبعد أن عذب مصطفى النساء السابقات

وأنهى حياتهم بالانتحار نلحظ أنها فعلت العكس، ومارست الاستبداد والذل مع مصطفى، وعذبته عند كل لقاء عاطفي، عاكسة بذلك علاقة السيد بالعبد من حيث اللون والعرق، وهي دائما كانت تذكره بأجدادها المستعمرين للسودان، وظهر الصدام الحضاري والثقافي بشكل واضح في هذه العلاقة عن طريق مجموعة من الأفعال التي صورها الطيب صالح في هذه العلاقة، فهي مثلا قبل اللقاء العاطفي كانت تحرق سجادة الصلاة المصنوعة من حرير أصفهان، وهكذا فهي كانت تتلذذ بتعذيب مصطفى وتحطيم صورة التراث الشرقي حتى تنتقم لبنى جنسها، وهو أراد أن ينتقم، فقام بقتلها، لأن هذا التصادم المشبوب بالانتقام شكل ذروة الصراع العاطفي والمكاني.

وصورة المرأة الشمالية في هذه العلاقات الجنسية وعلاقتها الجسدية بمصطفى هي صورة من صور التفوق السياسي لأحدي الجهتين: الشمالية والجنوبية على الأخرى، وتمثل نوعا من أنواع الصراع العرقي والجنسي والسياسي بين الشمال والجنوب.

أما عن صورة المرأة في الجنوب السوداني على وجه التحديد فسوف نرصدها في صورة حسنة؛ أرملة مصطفى سعيد التي تحمل الثقافة الجنوبية، وتمثل صراع شخوص الجنوب مع الجنوب عن طريق علاقتها بود الريس الذي تزوجها عنوة بعد وفاة زوجها، مما يتطلب بحثًا لهذه العلاقة من خلال تحليل المتن السردي عبر الحوار الصامت بالأعضاء الجسدية.

الخاتمة

خلص البحث إلى جملة من النتائج تخصّ موضوع الاغتراب والتمرد في روايات الطيب صالح بشكل عام، وفي شكل خاص في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال":

١- حاولت الذات العربية التشبث بهويتها الشرقية الحضارية الغائبة، وبالقدر نفسه حاولت الانتماء إلى هوية الآخر الغربي المتفوق علميًّا، وفي كلا المسعيين، أخفقت في إنتاج هوية واضحة تنتمي إليها؛ لذلك عاشت بين اغترابين، اغتراب التوحش في المدينة (انكلترا) واغتراب التوحد في القرية (السودان). ويبدو أن اغتراب الذات العربية في بيئتها أشد قسوة وإيلاماً من اغترابها في غير بني قومها؛ لذلك كانت نهاية هذه الذات اختفاءً أو انتحاراً في بيئتها، ارتحالاً كاملاً في اغترابها.

٢- يمثل اختفاء بطل الرواية مصطفى سعيد أو انتحاره في نهاية الرواية، شرخاً كبيراً في بنية المجتمع الشرقي المنتجة للزمن الدائري المغلق، وإدانة صارخة لبنية المجتمع الغربي المنتجة لشتات الإنسان وضياعه.

٣- مصطفى سعيد في جرائمه المتكررة مع نساء الغرب، يبحث عن عدالة غائبة، بقيت معنى متوارياً في بنية النص العميقة للرواية، فمصطفى سعيد في تسامحه الفوضوي مع نفسه، يدين ثقافة الغرب المتوحشة، لذلك كانت كل طعنة طعن بها ضحاياه من النساء الغربيات صرخة من صرخات الاستنكار لتلك العدالة الغائبة، والكرامة المستلبة.

٤- سيطرت عقدة المغلوب بإزاء الغالب على الشرق (مصطفى سعيد) في نظرته إلى الغرب (جين مورس)، فأنتجت الرغبة في النيل من الآخر، لتعويض عقدة النقص التي لحقته من ذلك. فكانت النتيجة تأنيث الآخر، ليصبح النيل منه ممكناً، في حين سيطرت النظرة الأسطورية والنظرة البدائية على الغرب في

نظرته إلى الشرق، فكانت النتيجة رسم صورة وهمية للشرق ونظرة دونية، وكلتا النظرتين تغلق باب التواصل مع الشرق.

٥- إن عدم تغير الصورة النمطية عن الآخر عند كلا الطرفين، الشرق والغرب، مؤشر عدم الدخول في زمن الوعي الناضج بالآخر، فالوعي ليس الفكر وحسب، بل هو الشعور بمسؤولية الفكر تجاه الذات والآخر، أي الانتقال من مستوى أدنى لاشعوري إلى مستوى أعلى شعوري، يدلُّ على الانعتاق من انغلاق ذهني، يجعل الآخر ينتمي إلى الأفق الذي يقع في منظور اهتمامه، بدلاً من النفي المتبادل الذي استقر عليه الصراع بين الشرق والغرب.

٦- الأفق الذي ينظر به المجتمع الشرقي في الرواية إلى الرجل والمرأة يخضع لمفهوم الجنوسة، لذلك ما زال هذا المجتمع بعيداً عن المجتمع المدني، قريباً من البداوة وإرثها الذكوري، في حين أنّ الأفق الذي ينظر من خلاله المجتمع الغربي إلى الرجل والمرأة، خاضعاً للتمايز العنصري وقائماً على الغلبة والمكر، لذلك كان هذا المجتمع بعيداً عن المجتمع المتحضر، قريباً من المجتمع البربري.

قائمة المراجع:

أولا: المصادر :

- صالح الطيب (١٩٩٦) موسم الهجرة إلى الشمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- صالح، الطيب (٢٠١٠) موسم الهجرة إلى الشمال : الطيب صالح – دار العودة – بيروت، ط٦.

ثانياً: الكتب:

- أبو زيد، أحمد (١٩٧٩). الاغتراب، عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت.
- أديث، كريزويل، عصر البنيوية – ترجمة: جابر عصفور، دار النهضة العربية، مصر.
- خليل، إبراهيم (٢٠١٠). تأملات في السرد العربي، دار فضاءات للنشر، الأردن.
- سالم، جورج (١٩٧٣)، المغامر الروائية – دراسات في الرواية العربية، القاهرة، مصر.
- فضل، صلاح (١٩٩٥)، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي: دار المعارف – القاهرة، ط ٥.
- مجموعة من الكتاب (١٩٨٤). الطيب صالح عبقري الرواية العربية، دار عودة، بيروت، لبنان.

ثالثاً: المجلات

- أبو سنة، منى (١٩٧٩)، أزمة الهوية وصراع الثقافات، ع٥٨، أكتوبر، السنة الخامسة.
- كاوفمان، والتر (١٩٧٩)، حتمية الاغتراب (٢)، ترجمة: كامل يوسف، مجلة الآداب البيروتية، ع٣، السنة السابعة والعشرون، بيروت لبنان، آذار (مارس).

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٢٥٥
٢-	Abstract	١٢٥٦
٣-	تقديم:	١٢٥٧
٤-	التمهيد	١٢٦١
٥-	تقديم الرواية (موسم الهجرة إلى الشمال) ولغة النص فيها	١٢٦٩
٦-	المبحث الأول : الاغتراب والتمرد في المتن السردي في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"	١٢٧٨
٧-	المبحث الثاني: النموذج الإنساني النسوي وارتباطه بالمكان	١٢٨٦
٨-	الخاتمة	١٢٩٢
٩-	قائمة المراجع:	١٢٩٤
١٠-	فهرس الموضوعات	١٢٩٥